

٢ - مصطفى كمال *

سيرة حياته

للكاتب الإنجليزي أرمسترونج

تلخيص وتعليق حنفي غالي

وفي ذلك الحين لم يكن يسمع في موناستير سوى صفيح الرصاص ودوي المدافع ، ولم يكن يرى فيها سوى جحافل الجيوش التأهبة لمقاتلة اليونان الذين استولوا على كريد ، وكان الجو يضطرب باشاعة الحرب واقتراب ساعة الخطر على الأمبراطورية ، وأخذت نورا وأوربا تتأهب للانتفاض على الجثة عموماً ، وكل منها أن يظفر بنصيب الأسد . أما في داخل الأمبراطورية فهناك فقر مدقع ، وبؤس ملح ، وحكم قاسد ، واستبداد خانق ، أضحيت معه حياة الأتراك حلماً مروعاً وكابوساً ثقيلاً ، إذ سلب السلطان عبد الحميد الأتراك أمنهم وحرمتهم ، ففشروا في كل مكان ، وألقى بالأتراك في أعماق السجون . فعم الذعر وساد القلق كل الناس ، ونادى الشبان بالإصلاح ، واضطربت النفوس بالثورة ، ولا سيما في بلاد البلقان حيث يوجد مستودع البارود على وشك الاشتعال عاجلاً أو آجلاً . وكان الشاب مصطفى قد هضم كل الأفكار الحديثة الشائعة في أوربا في ذلك الحين وتشبع بها تغالطت لحمه ودمه ، فكان إذا تأمل حالة وطنه وما يقاسيه من ألوان العسف والارهاق غلى مرجل قلبه ، ومضى نفسه أن يكون على رأس ثورة تقتلع الاستبداد من أساسه ، ويكون هو بطلها البارز وسيدها المطاع ، وهكذا تتجلى عظمة بطلنا في حساسية نفسه الكبيرة التي تأتي أن يطمئن له بال أو يهدأ له ضمير حتى يتحقق مثله الأعلى وغرضه الأسمى في الحياة .

وفي أيام العطلة كان يذهب إلى سالونيك لزيارة أمه ، ولكنه كان يتأذى جهد استطاعته عن الحياة المنزلية ، وظل الصفاء بينهما حتى تزوجت ، فأنكر عليها الزواج ولم يرتح إليه وصارحاً بهذا ، فتشاجرا وحل بينهما بعض الحفاء .

(*) أنظر العدد ٦١ من الرسالة

وقد تعلم إيان إقامته في سالونيك مبادئ اللغة الفرنسية بمعونة الرهبان اللاتين ، وتعرف إلى شاب يكبره قليلاً يدعى فتحي كان حياً أنيس المحضر ، وكانا يقرآن معاً في شرف شديد أدب روسو وفولتير وبعض الكتاب الفرنسيين كما قرأ كتب استوارت مل وهبز في الاقتصاد ، وكان بطلنا لا يني عن حب الطلبة على انقاذ الوطن من استبداد الخليفة ومطامع الدول الأجنبية كما كان يكتب وينظم القصائد النارية مثفناً بجمال الجريرة ،

وصاحبه التوفيق في مدرسة موناستير كأصاحبه من قبل في مدرسة سالونيك ، وكتب أساتذته عنه إنه « شاب متقد الذكاء عسير النفس تستحيل مخالطته » وبعد أن أتم دراسته أرسل إلى المدرسة الحربية بالآستانة برتبة ملازم ثان ، وهناك انضم في حياة الأثم والفجور من لعب القمار ومخالطة النساء ، ولم يعرف عنه أنه أحب إحداهن ذلك الحب الافلاطوني النبيل ، بل كان يقبل عليهن إقبال النحل على الزهرة يمتص رحيقها ويتركها ذابئة ذابلة ، وقد انصرف فجأة عن هذه الحياة وأقبل على عمله يجد ونشاط ، ووفق فيه توفيقاً بالغاً يعزى قبل كل شيء إلى تعويله على نفسه واعتماده على مجهوده ، وقد جاز كل امتحاناته بتفوق باهر ، ودرق إلى رتبة كبتن سنة ١٩٠٥ ، وكان يمزج السياسة بعمله داعماً ، وقد ألقى نفسه في الآستانة بين ضباط صفار يقاربونه في السن ويضطرمون بالثورة على استبداد الخليفة وتدخل الدول الأجنبية . وكان أساتذتهم بالمدرسة يعطفون عليهم ويتفاضون عما يفعلون ، ولكن لا يجرؤون على قيادتهم ومظاهرتهم .

وكان لهؤلاء الضباط بالمدرسة جمعية تدعى جمعية الوطن تلقى الخطب وتذيع النشرات مهاجمة فيها نظام الحكم وأخلاق الموظفين واستبداد الخليفة ورياء رجال الدين ، بل لم يغفل الذين نفسهم من مطاعنها لحيولته - كما كانوا يعتقدون - دون التقدم والارتقاء ، فضلاً عن فساد النظم المؤسسة عليه ، وقد تعاهد أعضاؤها على تقويض حكومة الخليفة واستبدالها بحكومة دستورية ، وإيقاد الناس من كابوس رجال الدين ، وتحرير المرأة من عبوديتها . والواقع أن تركيا في ذلك الحين كانت محتضرة ، وما كانت الحياة لتعود إليها إلا إذا لفتحت بدم تقى جديد ، وقد انخرط الشاب مصطفى في سلك أعضائها ، وأخذ يكتب في نشرتها مقالات نارية وشعراً ملتهباً ، ويلقى في اجتماعاتها خطباً لازعة ، ولكن السلطان

وفي يوم من الأيام اقتيد من غير انذار الى مكتب رجل من رجال العهد القديم ومن أنصار عبد الحميد القرين هو اسماعيل حتى باشا ، فأخذ الرجل يديم النظر في ملامحه ، ثم قال له : «لقد أظهرت مقدرة فائقة وكفاءة ممتازة ، وأمامك مستقبل باهر ينتظر في خدمة صاحب الجلالة ، ولكنك من جهة أخرى شئت نفسك ولوثت شرفك الحربى ، نغالطت أسوأ اللذات ، وأخذتم تقامرون وتشربون وتختلفون الى الأمكنة الوبوءة ، وأشنع من هذا وأشد نكراً أنك نكثت عهد الاخلاص لملكك ، فزججت بنفسك في موج السياسة ، وظهرت العناية الخائفة ضده ، وحرضت زملاءك على احتذاء مثالك ، والافتداء بك ، ولكن جلالة الخليفة قد وسعتك رحمة وشملتك رعايته ومفقرته إذ رآك شاباً أحمق ، لملك قد انقدت لهواك من غير تبصر أو تقدير للعواقب ، فاختارك للذهاب مع فرقة الفرسان الى دمشق ، ويتوقف مستقبلك على ما يعلم من ملكك ، ولكن عليك أن تتجنب هذا الحق وتتوفر على أداء واجباتك الجندية ، وخذ لنفسك الحذر فانك لن تحظى بفرصة أخرى .»

وفي نفس الليلة رحل في سفينة الى سوريا بدون أن يسمح له برؤية أمه أو أصدقائه ، وبلغ بيروت بعد سفر شاق ، فامتطى جواده وعبر به جبال لبنان حتى انضم الى الفرقة في دمشق فوجدتها تتأهب للرحف على الدروز القيمين بمجنوب دمشق والذين كانوا دائمى الثورة على الدولة العلية ، وقد كانت هذه الغزوة أول تجربة لنشاطه ، ولكنها لم تكن ترضى الجندى النظامى إذ كانت بلاد الدروز عبارة عن جبال مجدبة تتقاطع مع وديان ضيقة عميقة لاماء فيها ولا طريق مبدد ، وكان الدروز قوماً أقوياء الشكيمة صعب المراس دارسين كل شبر من أرضهم ، ومضت الأيام بين الفريقين في كفاح غير مشمر ، إذ لم يستطع الأتراك الظفر بأعدائهم ، فأحرقوا قراهم ودمروا حقوقهم وعادوا التهقرى إلى دمشق لهجوم فصل الشتاء يبرده القارس وجوه المكفهر المظلم ، وهناك أخذ بطلنا التأثير بعد العدة لانشاء فرع لجمعية الوطن ، ولم تغير الأيام السود التى قضاه في سجن الأستانة منه شيئاً ، ولم تضعف نفسه القوية ، ولم تلت قناته الصلبة ، ولم ترد قلبه الكبير عن غرضه ، إذ كان مصطفي ثائراً على كل شئ ، : على الدين والناس والنظم

عبد الحميد لم تكن لتخفى عليه خافية ، فلم بأمر الجمعية من جواسيسه المتنن في كل مكان ، وحزع جزعاً شديداً إذ رأى فيها نواة عمل سينتهى بثل عرشه . نغالط أحد أعوانه الدعوى اسماعيل حتى ، وتحدث هذا بشأنها الى ناظر المدرسة الحربية بالاستانة ، فحرم الناظر عقد اجتماعها ، ولكن لم يفت هذا في عضد أعضائها الثائرين ، فأخذوا يعقدون اجتماعها في الخارج ، وأضحت احدى تلك الجمعيات السرية المنتشرة في الاستانة تعمل على هدم الظلم ومحو آثاره .

وبعد أن جاز مصطفي الامتحان بمدرسة الاستانة استأجر غرفة لتكون مكتباً للجمعية تطبع فيه نشراتها ، وكان الأعضاء يجتمعون في منازل خاصة بأون اليها خفية يترقبون ، وقد ارتاح بطلنا الى هذه الحياة لتأصل حب المغامرة في نفسه واستقراره في طبعه ، وأخذ يتعلم أساليب الجمعيات الثورية ونظمها ، ولكن عيون عبد الحميد لم نال جهداً في مراقبة هذه الجمعية وتضييق الخناق عليها ليفاجئوا الأعضاء متلبسين بالجريمة ، ولم يكن هذا باليسير عليهم ، إذ كان الأعضاء ينقصهم الدراية بأساليب هذه الجمعيات ، وإن لم تموزهم الحماسة والشجاعة .

واستطاع أحد الجواسيس أن يتسلل الى الجمعية ويتصل بها ، وازدادت على توالى الأيام ثقة الأعضاء به واعتمادهم عليه ، فتمت خديمتهم لهم وجات حيلته عليهم ؛ وبينما هم يقسمون قسم الجمعية في يوم من الأيام إذا رجال البوليس السرى يفاجئونهم ويقبضون عليهم ، فزج مصطفي وسائر الأعضاء في السجن الأحمر بالاستانة ، وكان بطلنا من بينهم مثار الريب والمخاوف ، واعتبر في عداد الخطرين على النظم القائمة ، فنزل عن زملائه في مكان قصى ، وترأى له المستقبل مظلماً قاتماً ، إذ لو بنا لعبد الحميد أنه نذير خطر عليه لاختنق من الحياة كما اختنق أمثاله من قبل كوميس البرق . وقد راع الأم الحنون مصير ابنها ، فأسرعت بمحذوها الأمل والتخوف فزيارته ، فأبوا عليها ذلك ولم يسمحوا لها إلا بإرسال بعض النقود اليه ، ومضت على حاله هذه أسابيع نقل بعدها الى « ززانة » ضيقة مظلمة قدرة لا يتقد اليه فيها إلا قبس ضئيل من النور من كوة صغيرة ، فأثر هذا السجن الموحش في نفسه أبلغ تأثير ، وزاد خلقه غلظة ووحشية .

على حكومة الأستاذة ، فكتب اليها يطلب أن تروده بتعليقات أوضح وأدق عن مصطفى كمال ، ويقول إن ما وصل اليه منها فيه كثير من الخطأ ، لأن مصطفى كمال كان طوال المدة السابقة مقبلاً في غزة ، ولم يرحها الى سالونيك ، وصادق على كلامه مفيد لظني الضابط بغزة .

وهنا تظهر حكمة بطلنا ونظرة البعيد . فقد رأى أنه لو وقع في يد عيون الخليفة مرة أخرى ، لما رأى نور الحياة بعد ذلك لحظة واحدة ، فاعتزل الحياة العامة زهاء عام ، ليزيل ما أحاط به من ريب وشكوك ، وأقبل على عمله بمجد ونشاط ، حتى لفت أنظار رؤسائه اليه ، فأعجبوا به وأثنوا عليه قائلين . إنه لا يعنى بغير واجبه ، وهو يؤديه على أكمل وجه ، وآتم شكل ، فأحسنت به حكومة الأستاذة الظن ، وزججت أن جواسيس سالونيك قد ظلوه باعتباره في عداد الخطرين ، ولكن خيال سالونيك لم يبرح رأس بطلنا ، وأتى له ذلك وفيها نذير الثورة التي يريد مصطفى أن يكون بطلها الذي يشار اليه بالبنان ، وبينما هو غارق في تفكيره وتديره إذا به يتسلم أمر النقل الى سالونيك وهو يكاد أن يكون له من المكذبين ما

منفى غالى

يتبع

والتقاليد ، ولم يكن لشيء من نفسه حرمة أو قداسة ، ولكنه كان يجمع إلى حماسة الشبر حذر الشيوخ ونظرم البعيد ، وكان قد هجر الأدب لما وجد مدعاة للشك ، خيبة للتردد موجياً للخطأ لما بين الحكمة النظرية والحكمة العملية من تناقض ، وأقبل على درس أساليب الثورة ووسائلها ، وقد وجد التربة صالحة للبذر . فصنار الضباط مضطربون بالسخط ، ورؤساؤهم يمتطون عليهم ويميلون اليهم ، وقد وجد مصطفى من بينهم زميلاً قديماً له ، فأخذ منه نصيراً ومعيناً له في عمله ، وسرعان ما اشتد ساعد الجمعية وتكاثر عدد أعضائها ، وأخذ بطلنا يشعر بمكائنه وخطره ، ولكن سرعان ما فطن الى خطئه وتنادى الى صوابه ، فلم أن أهل البلاد ليسوا مهينين لقبول دعوته . وإن كان ضباط الحامية التركية متأهين لتليتها وإبرازها الى حيز العمل .

وقد أرسل اليه أصدقاؤه يخبرونه بأن البلقان هي مهد الفتن والفتائل ، وأن عليه أن يسى لنقله الى سالونيك ليضمن نجاح حركته وانتشار دعوته ، فاعتزم تنفيذ ما أشاروا به عليه ، سواء أجاوبته الحكومة الى طلبه أم أبته عليه ، وكان صاحب شرطة ياقا عضواً بجمعية الوطن ، فاتفق معه على كتمان وجهته ، وحصل على أجازة بضعة أيام رحل في خلالها الى ياقا وأبدل اسمه واتخذ له لباساً مستعاراً ، فاستطاع أن يعبر البحر منها الى أثينا ، ثم الى سالونيك حيث ألقى السخط والقلق يساوران كل النفوس ، وهناك اعتكف في منزل أمه ، ووجد أن الجو صالحاً لا لبلاغ رسالته ، إذ كانت سالونيك قلب الحركة ومهد الثورة ، فأخذ يتعرف بمونة أمه وأخته الى صفار الضباط من زملائه القدماء ، وطلب نقله الى سالونيك ليتسنى له الاشراف على تنفيذ خطته ، ولكنه قيل أن يخطو خطوة أخرى صدرت من الأستاذة الأوامر بالقبض عليه ، فعمل حكمدار سالونيك على خلاصه ، فنهه الى الخطر المحقق به وأخبره أن أمر القبض سينفذ بعد يومين ، وعليه أن يتأهب للرحيل ، فعاد مصطفى بطريق البحر الى ياقا ، وكانت أوامر القبض عليه قد سبقته اليها ، ولكن لحسن طالعهم قبض الله له كبير الشرطة في ياقا ، وكان عضواً بجمعية الوطن ، فهد له سبيل الفرار الى غزة ، وأراد أن يحكم الحيلة لتجوز

جمعية التبليغ المصرية

مدارس التبليغ

مدرسة النيل الثانوية للبنين

مدرسة النيل الابتدائية للبنين

مدرسة النيل الثانوية والابتدائية للبنات وروضة الأطفال

تقدم الطالبات داخلية وخارجية بجميع فرق الدراسة على استمارة تصرف من إدارة المدارس

تليفون إدارة الجمعية (٥٩٠١٥)